تقديم

ظهرت الدولة الخوارزمية في مهدها كياناً سياسياً محدوداً في كنف السلطان السلجوقي بركياروق (٤٦٥ : ٤٨٥)هـ وأخيه السلطان سنجر (٤٩٠ : ٥٥٢)هـ في زمن كانت الدولة السلجوقية لاتزال تتمتع فيه بمظاهر قوتها وآيات عظمتها .

ولم يكن الحكام الأول الذين أختارهم السلاجقة لحكم إقليم خوارزم ينتمون إلى الأهالي فيه من ناحية المكان إلا أنهم كانوا يشاركونهم كما كانوا يشاركون السلاجقة في الانتماء إلى الجنس التركي الذي كان ينتشر في أواسط آسيا : تركستان وبلاد ما وراء النهر وأفغانستان وخوارزم والقوقاز .

وقد تعرضت بحوث تاريخية سابقة لدولة الخوارزمية من زوايا متعددة منها على سبيل المثال :

– الدولة الخوارزمية والمغول ، للأستاذ حافظ أحمد حمدي، نشر دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٩م.

– الدولة الخوارزمية نشأتها وعلاقاتها مع الدول الإسلامية، نظمها العسكرية والإدارية ٤٩٠ : ٦٢٨هـ. للدكتور نافع توفيق العبود نشر جامعة بغداد سنة ١٩٧٨م.

– التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية للدكتورة عفاف سيد صبره نشر دار الكتاب الجامعي بالقاهرة سنة ١٩٨٧م.

وقد ركز البحث الأول على علاقة الخوارزميين بالمغول، وانصب اهتمامه على حياة الخوارزميين في إقليم خوارزم موطنهم الأصلي، ثم تابع تحركات سلطانهم الأخير منذ فراره إلى الهند سنة ٦١٨هـ حتى مصرعه في جبال

الأكراد قرب ميافارقين في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ، وأعطى هذا البحث تفصيلات مهمة عن حياة المغول ونظمهم المختلفة.

واهتم البحث الثاني بالعلاقات بين الخوارزميين والقوى السياسية المتصلة بهم ومنها الخلافة العباسية والغوريون، والأيوبيون، ثم عرض للنظامين العسكري والإداري في الدولة الخوارزمية، وتضمن هذا البحث عرضاً موجزاً لعلاقة الخوارزميين مع الصليبيين في الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجري.

وأولى البحث الثالث اهتماماً خاصاً بالجانب السياسي في تاريخ الدولة الخوارزمية، ولم يهتم بجوانب أخرى شديدة الارتباط به والتأثير عليه وبخاصة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

والآن وبعد مرور اثنتي عشرة سنة على صدور آخر هذه البحوث ظهرت خلالها أجزاء مهمة من مخطوطات لم تكن محققة من قبل منها على سبيل المثال :

أ – «أخبار سلاجقة الروم» لابن البيبي وله ترجمتان عن الفارسية إلى العربية.

ب– «نهاية الآرب» للنويري الأجزاء من ٢٦ : ٣٣.

جـ– «تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاءوالملوك والنواب» لابن أيبك الصفدي.

كما توفر لي فيها العديد من المصادر التي لم تستند إليها البحوث السابقة منها على سبيل المثال :

أ – «أخبار الأيوبيين» لابن العميد.

ب- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب» لأحمد بن إبراهيم الحنبلي .

جـ- «صدق الأخبار» لابن سباط.

وقد هيأ ذلك لي أن أعرض لفترة مهمة في تاريخ الخوارزميين ترتبط بوجودهم في الشرق الأدنى الإسلامي (الأناضول - بلاد الجزيرة - الشام) بعد مصرع سلطانهم الأخير جلال الدين منكبرتي في شوال سنة ٦٢٨ / أغسطس سنة ١٢٣١م.

وأخترت أن يكون منهاج البحث على النحو التالي :

١- تمهيد جغرافي عن بيئة الخوارزميين في موطنهم الأصلي للتعرف على أهم ملامحها التي انعكست على تكوينهم الجسمي والنفسي، وشكلت أنماط حياتهم العملية، وتدخلت أيضاً في تحديد علاقتهم بجيرانهم.

٢- عرض موجز سريع لأهم مواقف التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية.

٣- موضوع البحث ويمتد زمنياً بين عامي ٦٢٨ و٦٤٤هـ، ويتضمن عدة محاور :

أ - التمزق الخوارزمي في أواخر سنة ٦٢٨هـ.

ب- الهجرة الخوارزمية إلى كنف سلاجقة الروم بالأناضول في الفترة بين عامي ٦٢٨، ٦٣٤هـ.

جـ - الفرار إلى بلاد الجزيرة في الفترة بين عامي ٦٣٤، ٦٤١هـ وعلاقتهم مع الأيوبيين والأراتقة والخلافة العباسية.

ء - الارتحال إلى بلاد الشام في الفترة بين عامي ٦٤٢ و٦٤٤هـ، وصدامهم مع الصليبيين في القدس وغزة ويافا.

هـ- التمزق الخوارزمي الأخير أسبابه وأهم نتائجه .

و - الخاتمة .

وأخيراً فقد اجتهدتُ، ولعلي أكون قد أصبتُ، وعلى الله قصد السبيل فهو نعم المولى ونعم المعين.

القاهرة في ١٩/٦/١٩٩٨م

الدكتور

صبري عبد اللطيف سليم

obeikandl.com

إقليم خوارزم :

يقع إقليم خوارزم في عمق آسيا الوسطى حيث يحده من الشمال بحر آرال الذي يفصله عن منازل قبائل الأتراك القرغيز الذين كانوا يتحركون حول نهر أرتيش في اتجاه الغرب، ويحده من الجنوب مفازة الغز الأتراك التي تفصله عن إقليم خراسان الذي يشمل شرقي إيران(١) . ويحده من ناحية الشرق نهر جيحون «أموريا» الذي يكاد يفصله عن بلاد الأتراك في بلاد ما وراء النهر، كما يحده من ناحية الغرب بحر قزوين حيث يقيم هناك بعض قبائل الأتراك من القبجاق(٢) .

ومن ثمة يمكن القول إن الخوارزميين ينتمون من حيث الأصل إلى الجنس التركي الذي غلب على معظم أجزاء آسيا الوسطى ويؤكد ذلك قول ياقوت الحموي الذي زار خوارزم سنة ٦١٦هـ «وفي وجوههم أثر للترك وفي طباعهم أخلاق الترك، وفيهم جلد وقوة»(٣) .

من هذا التحديد الجغرافي يتضح أن «خوارزم» ليس اسماً للمدينة أي العاصمة وإنما هو اسم للإقليم كله، وتنقسم كلمة «خوارزم» إلى مقطعين «خوار» بمعنى اللحم و«رزم» بمعنى الحطب، وجرى حذف أحدى الرائين استثقالاً لتكرارها، والمعنى الإجمالي أنها أرض اللحم والحطب، أي الطعام الموفور(٤) ويؤكد ياقوت الحموي على ذلك فيقول بعد أن زارها سنة ٦١٦هـ

---

(١) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٧٧ .

(٢) الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ص٢٢٥، كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٨٩ (انظر الخريطة) .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٢٠ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٥ .

أي قبل سقوطها في أيدي المغول بعام واحد « فما رأيتُ ولاية قط أعمر منها، فإنها على ما هي عليه من رداءة أرضها وكونها سبخة، كثيرة النذور، متصلة العمارة، متقاربة القرى، كثيرة البيوت المفردة، والقصور في صحاريها قلما يقع نظرك على موضع لاعمارة فيه »(١) .

والمناخ في إقليم خوارزم شديد الصعوبة وبخاصة في فصل الشتاء حيث تجمد مياه الأنهار وبخاصة نهر جيحون، ولايمنع ذلك الأهالي من الحركة أو العمل حيث تعبر القوافل التجارية ثلوج الأنهار ذهاباً وإياباً(٢) .

ويتكلم الخوارزميون اللغة التركية ، وهي تختلف بطبيعة الحال عن اللغة الفارسية التي يتحدث بها أهل خراسان(٣) الواقعة جنوبي بلادهم ويبدو أنهم كانوا ينطقون لغتهم التركية تلك بلهجة خاصة يصفها ياقوت الحموي بقوله « وكلامهم كأنه أصوات الزرازير »(٤) أى العصافير.

أما الصفات الجسمية للخوارزميين فكانت واضحة فهم يمتازون بالطول والضخامة، وفي رؤوسهم عرض، ولهم جبهات واسعة(٥) .

ويميز عنصر الطول الخوارزميين عن المغول المجاورين لهم والذين كانوا يتميزون بقصر القامة(٦) ولايقلل من ذلك أن جنكيز خان المغولي كان طويل القامة(٧) كما كان جلال الدين منكبرتي الخوارزمي قصير

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦، والقزويني : آثار البلاد ص٥٢٠.

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٧٧، الحميري : الروض المعطار ص٢٢٥.

(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق جـ٢ ص٦٩٩، الحميري: الروض المعطار ص٢٢٥.

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص ٣٩٦.

(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦.

(٦) محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشري ص ٢٩٧.

(٧) السيني . ف . يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٧، فلاد يمير ستوف: حياة جنكيز خان ص ٢٣٣.

القامة[١] فكلاهما كان استثناءً على القاعدة في بني جنسه، والحقيقة أن المغول والخوارزميين لاينتمون إلى أصل واحد مشترك، كما ظن ذلك بعض المؤرخين[٢].

وأما صفاتهم النفسية فكانت تدل على أنهم أهل غلظة ونجدة وأصحاب عزيمة صلبة ومحبة في السفر، وبخاصة إلى خراسان[٣] التي تفصلها صحراء الأتراك الغز عن بلادهم كما سبق القول.

وهم على الإجمال قد مرنوا على تحمل ضيق العيش والقناعة بالشيء اليسير[٤] حتى صاروا موضع بأس ومنعة فهابتهم قبائل الأتراك الغز التي كانت مصدر خوف وقلق لجيرانهم، فكانت تهاب سطوتهم وتحذر من مصادرتهم[٥].

وقد احترف الخوارزميون كثيراً من المهن، وأهمها التجارة حيث كانت أكثر ضياع خوارزم مدنًا ذات أسواق ودكاكين، وفي النادر أن يكون هناك قرية لاسوق فيها مع أمن شامل وطمأنينة تامة[٦].

وكانت أهم تجارات خوارزم الطعام والحبوب والفاكهة كما كانت تصدر منها ثياب القطن والصوف والحرير وسائر الأمتعة، وكان من غلات خوارزم

---

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٨٤، النويري: نهاية الأرب في فنون الادب جـ٢٧ ص٢٩٨.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٥٠٦، ابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور ص١٦، الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس جـ٢ ص٣٦٨.

(٣) الادريسي: نزهة المشتاق جـ٢ ص٦٩٩، الحميري: الروض المعطار ص٢٢٥.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق جـ٢ ص٦٩٩.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦.

أيضاً الشمع ولحاء شجر الحور الأبيض الذي يتحد علافاً للدروع، وغراء السمك والعنبر والعسل والخلنج(١).

كذلك كانت خوارزم مركزاً لحركة بيع وشراء أشهر أنواع الفراء وأغلاها ومنها الفنك والسمور والثعالب وكانت تجلب إليها من بلاد البلغار على نهر الفولجا، كما نشطت بخوارزم أيضاً تجارة الرقيق من الصقالبة والأتراك الذين كانوا يجلبون صغاراً فيجرى تعليمهم الدين الإسلامي وآدابه، ثم يرسلون إلى سائر الأقطار الإسلامية(٢).

وأهتم الخوارزميون بالزراعة فأكثروا من زراعة الأشجار وبخاصة شجر التوت والخلاف لاحتياجهم إليه لعمائرهم وطعم دود الإبريسم(٣). كما كانوا يزرعون البطيخ الذي لايوجد مثله في شيء من البلاد حلاوة وطيباً(٤) كما كانوا يزرعون أيضاً العنب والسمسم والأرز والقطن(٥).

وأولى الخوارزميون الرعي اهتماماً واضحاً، فقد انتشرت المراعي في الشمال قرب بحر آرال «بحيرة خوارزم» حيث كانت تربى قطعان الأغنام التي يؤخذ منها الصوف، وقطعان الماشية التي تنتج أصنافاً كثيرة من اللبن والجبن(٦).

وكان من الطبيعي أن يقوم على ذلك كله العديد من الصناعات المهمة،

---

(١) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص٥٠٢.

(٢) الحميري : الروض المعطار ص٢٢٥، كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص٥٠٢.

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٣٩٦.

(٤) القزويني : آثار البلاد ص٥٢٠.

(٥) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢.

(٦) الإدريسي : نزهة المشتاق جـ٢ ص٦٩٤. كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢.

ومنها صناعة السيوف والدروع والقسي، وصناعة البسط وثياب اللحف والديباج المصنوع من القطن والحرير، و غيرهما من الثياب الملونة، وكذلك صناعة السفن من جذوع الأشجار للملاحة في الأنهار الكبيرة والصغيرة(١).

ولم تكن مدينة «جُرْجانية» عاصمة خوارزم الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون إلا صورة واضحة لكل مدن هذا الإقليم، فقد كانت مدينة عامرة ذات أسواق(٢) وربض وسور محيط بالربض، كما كانت مركزاً للتجارة مع الأتراك الغز(٣) وكان أهلها يعملون بالصناعات الدقيقة آنذاك كالحدادة والنجارة، وكانوا يتحرون الدقة المتناهية في أعمالهم حتى إنهم تميزوا في صناعة الأدوات من العاج والأبنوس، كما كانت نساؤها يعملن بالأبرة صناعات مليحة كالخياطة والتطريز والأعمال الدقيقة(٤).

وكانت مساحة جرجانية تزيد على مساحة كثير من المدن الإسلامية المشهورة مثل مرو ونيسابور وبلخ(٥) مما يؤكد على أهميتها التي أهلتها لتكون عاصمة الدولة الخوارزمية على اتساعها.

وقد شاهد ياقوت الحموي جرجانية بنفسه سنة ٦١٦هـ قبيل سقوطها في أيد المغول فهو يقول عنها «فلم أعلم أني رأيتُ أعظم منها مدينة، ولا أكثر أموالاً وأحسن أحوالاً، فاستحال ذلك كله بتخريب المغول إياها حتى لم يبق فيما بلغني إلا معالمها، وقد قتلوا جميع من كان بها(٦).

---

(١) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٢.

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ص٤٧٩.

(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق جـ٢ ص٦٩٦، الحميري: الروض المعطار ص١٦٢.

(٤) القزويني : آثار البلاد ص٥٢٠، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٥٠٢.

(٥) الحميري : الروض المعطار ص١٦١.

(٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص١٢٢.

سلاطين خوارزم :

ينسب سلاطين الدولة الخوارزمية في الأصل إلى أنوشتكين وهوعبد تركي كان مملوكاً للأمير السلجوقي بلكباك، اشتراه من بلاد الغور(١) التي تقع في أفغانستان الحالية.

ويبدو أن هذا الأمير السلجوقي قد رأى في أنوشتكين ملامح نجابة اتضحت في تكوينه الجسمي المتسق، وصفاته النفسية الهادئة، ومن ثمة قدّمه إلى بلاط السلطان السلجوقي ملكشاه حيث حظى بوظيفة الساقي(٢). وقد هيأت له هذه الوظيفة فرصة الترقي حتى عين شحنة على أقليم خوارزم سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م(٣)، فاستمر مداوماً عليها حتى وفاته في سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م(٤).

ولما كان أنوشتكين قد أرسل أكبر أبنائه قطب الدين محمدإلى مدينة مرو ليتلقى آداب الرئاسة ورسوم الإمارة(٥) فقد أتاح ذلك لقطب الدين فرصة الترقي حين رأى الأمير السلجوقي ذاد حبشي الذي كان يحكم خراسان من قبل السلطان السلجوقي بركيا روق تعيينه والياً على إقليم خوارزم ولقبّه خوارزم شاه سنة ٤٩٠هـ(٦).

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص٢٦٧، النويري : نهاية الأرب جـ٢٧ ص١٩٧.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب جـ٤ ص٣٢٢، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص١٩.

(٣) الجويني : تاريخ جهانكشاي جـ١ ص٢٥٥، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٨٢، فامبري: تاريخ بخارى ص١٤٧.

(٤) براون : تاريخ الأدب في إيران ص٣٨٣، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص١١٥.

(٥) الجويني : تاريخ جهانكشاي جـ١ ص٢٥٦.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص٢٦٧، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص١٩.

وفي نفس العام آلت إمارة خراسان إلى الأمير سنجر السلجوقي من قبل أخيه السلطان بركيا روق في خامس جمادى الأولى(١) فأبقى قطب الدين محمداً في منصبه، فظلَّ هذا الأخير طوال فترة ولايته على إقليم خوارزم (٤٩٠ : ٥٢١هـ) تابعاً لسنجر وملتزماً بطاعته(٢).

وقد يرجع ذلك في الغالب إلى ما كان عليه قطب الدين محمد من كياسة وفطنة وعرفان بالجميل للسلاجقة أصحاب الفضل عليه وعلى أبيه، كما يرجع أيضاً لما كانت عليه دولة السلاجقة من قوة آنذاك وبخاصة فى الفترة الأولى من حكم السلطان سنجر السلجوقي.

ولم يستطع آتسز بن قطب الدين محمد (٥٢٢ : ٥٥١هـ) أن يصير على هذه الطاعة طويلاً، فخرج عن إطارها منذ عام ٥٣٠هـ ودخل في صراع طويل مع السلطان سنجر، فنجم عن ذلك تعرض مدينة خوارزم للحصار السلجوقي ثلاث مرات في أعوام ٥٣٣هـ، ٥٣٨هـ، ٥٤٢هـ، وفي كل مرة كان أتسز يضطر إلى إعلان الخضوع والتماس العفو وتقديم الهدايا، وكان السلطان السلجوقي سنجر يقبل ذلك منه!!(٣).

وفي الحقيقة لم يكن السلطان سنجر متفرغاً لمواجهة عصيان أتسز فقد تعرض جيشه الضخم لهزيمتين فادحتين: الأولى أمام قبائل القراخطاى الوثنيين الذين كانوا يحكمون تركستان ويهددون المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر، وقد وقعت هذه الهزيمة سنة ٥٣٦هـ عند قرية قطوان التي تقع على

---

(١) ابن ناصر الحسيني : زبدة التواريخ ص١٧٧، البنداري : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٣٦، النويري : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٣٧٣ .

(٢) خواندمير : حبيب السير جـ٢ ص٦٢٩، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٢٨٣ .

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٢٦ ص٣٨٥ – ٣٨٦، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١١٥، ص١١٧، فامبري : تاريخ بخارى ص١٤٨ .

خمسة فراسخ من سمرقند حيث هلك أغلب جيش سنجر ووقع قواده في الأسر وكذلك زوجته وهرب هو بنفسه إلى مدينة ترمذ، فسقطت بذلك بلاد ما وراءالنهر كلها في أيدي القراخطاي(١) .

وعلى الرغم من أن آتسز كان ضالعاً في استحضار القراخطاي وتحريضهم ضد السلطان سنجر بدافع الانتقام منه، إلا أنه أضطر أمام تفاقم خطرهم، وتهديدهم لإقليم خوارزم إلى مصالحتهم على أن يدفع لهم خراجاً سنوياً مقداره ثلاثون الف دينار(٢) .

أما الهزيمة الثانية لسنجر فكانت أمام قبائل الغز التركمانية التي كانت تقيم حول مدينة بلخ، وقد وقعت هذه الهزيمة عند مدينة مرو سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، وفيها قُتِلَ قوادسنجر، ووقع هو مع زوجته في الأسر(٣) .

وقد أدى ضعف السلاجقة في إيران أبان الفترة الأخيرة من حكم سنجر إلى اختلال التوازن العسكري والسياسي في آسيا الوسطى ففي الشرق تفاقم خطر القراخطاي في تركستان وبلاد ما وراء النهر، وفي الجنوب ازدادت سطوة قبائل الغز وبخاصة في كرمان ومكران، وفي الشمال ظهرت أطماع الخوارزميين في الاستيلاء على إقليم خراسان بثرواته الطبيعية .

وعلى هذا لم توقف وفاة السلطان الخوارزمي آتسز في التاسع من

---

(١) البنداري: مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٥٤، الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ٤ ص٩٨، وتقع ترمذ على شاطئ نهر جيحون من جانبه الشرقي في مواجهة مدينة بلخ على الضفة الأخرى.. انظر .. كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٨٤ .

(٢) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٣٨٥، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٥٤، فامبري: تاريخ بخارى ص١٤٩ .

(٣) براون : تاريخ الأدب في إيران ص٣٧٩، عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق ص١٣١ .

جمادى الآخرة سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م[١] أو وفاة السلطان السلجوقي سنجر بعده في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧[٢] حتمية الصراع بين الطرفين، فقد شرع إيل أرسلان بن اتسز (٥٥١-٥٦٨هـ) في بسط سلطانه على غربي خراسان عقب وفاة سنجر[٣].

وأخيراً تمكن السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش بن ايل أرسلان (٥٦٨ : ٥٩٦هـ) من هزيمة السلطان السلجوقي طغرل الثالث عند مدينة الري في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، فأزال بذلك سلطان السلاجقة عن العراق[٤] فأضحت أملاك الدولة الخوارزمية متاخمة لأراضي الخلافة العباسية.

ولم يؤد هذا التجاور المكاني إلى نتيجة حاسمة ترضى الطرفين فالخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ : ٦٢٢هـ) والذي حرّض الخوارزميين على محاربة السلاجقة أملاً في أن يخلصوه من سيطرتهم قد أدرك بجلاء أنه استبدل خصمًا هرمًا بآخر فتى عنيد، فهؤلاء الخوارزميون القادمون من الشرق لن يكتفوا باحتلال أملاك السلاجقة فحسب، وإنما ستمتد أطماعهم إلى نيل ما كان لهؤلاء السلاجقة من مظاهر السيادة على بغداد نفسها والتي تمثلت

---

(١) الجويني : تاريخ جهانكشاى جـ١ ص٢٦٥، أحمدحلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١١٨.

(٢) النويري : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٢٨٩، الذهبي: العبر جـ٤ ص١٤٨، فامبري: تاريخ بخارى ص١٥٠.

(3) Skrime & Ross: the Heart of Asia. P. 140

وانظر أيضاً .. دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ص٦٢ وعباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٣٢٣.

(٤) الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص٥١٣، ابن ناصر الحسيني: زبدة التواريخ ص٣١٣.

في فرض اسمهم على الخطبة والسكة ودار خاصة للسلطان الخوارزمي تطاول دار الخلافة العباسية وتعلو عليه(١) .

ولم تغير وفاة السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م شيئاً من الناحية السياسية، إذ لما تولى ابنه علاء الدين محمد مكانه (٥٩٦ : ٦١٧هـ) عاود الخوارزميون المطالبة بكل ما كان للسلاجقة من مزايا لدى الخلافة العباسية، فوجد الخليفة الناصر نفسه مضطراً إلى اتباع نهجه القديم، فشرع في استعداء الغوريين على الخوارزميين(٢) ثم أمعن في ذلك فعمل على إثارة الأمراء والحكام المحليين في غربي إيران ضدهم، بل إنه تحالف أيضاً مع جلال الدين الحسن الثالث الإسماعيلي (٦٠٧ : ٦١٨هـ) صاحب قلاع الإسماعيلية في قهستان، وآلموت، ورودبار، وكان قد تظاهر بترك مذهب الإسماعيلية، واعتناق مذهب أهل السنة والجماعة(٣) .

وعلى هذا فقد شرع الخوارزميون في إحكام سيطرتهم على إيران كلها، ففي الشمال تمَّ الاستيلاء على إقليم مازندران الواقع جنوبي بحر قزوين وضمّه سنة ٦٠٦هـ إلى دولتهم(٤) وفي الجنوب جرى الاستيلاء على إقليم كرمان سنة ٦٠٧هـ ثم اقليم مكران سنة ٦١١هـ، وتضمن ذلك الساحل المطل على

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢١٣، فامبري: تاريخ بخارى ص١٥٧، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص٦٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٦٣، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٣٧ .

(٣) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٣٣٢، ص٣٣٣، عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص١٤١ .

(٤) الجويني : تاريخ جهانكشاى جـ٢ ص٣١٥، النويري : نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢١٥ .

المحيط الهندي بما فيه ميناء هرمز التجاري المهم(١) .

وفي أقصى الشرق كان الخوارزميون قد نجحوا في احتواء مدينتي هراة وبلخ سنة ٦٠٣هـ، وهما من أملاك الدولة الغورية(٢) ، التي سقطت عاصمتها غزنة في أيديهم سنة ٦١٢هـ(٣) ، فآل حكمها إلى جلال الدين منكبرتي أكبر أبناء السلطان الخوارزمي علاء الدين بن تكش.

وفي غضون ذلك كان الخوارزميون قد حققوا نجاحاً باهراً حين تمكنوا سنة ٦٠٦هـ من هزيمة دولة القراخطاي وتقليص نفوذها عن أهم بلاد ما وراءالنهر (سمرقند – بخارى)(٤) .

وموجز القول هنا، إن الدولة الخوارزمية قد بلغت آنذاك أقصى اتساعها، وأضحى اصطدامها بالخلافة العباسية وشيكاً، وبالفعل سار السلطان الخوارزمي سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م صوب الغرب على رأس حملة وجهتها بغداد، واستطاع أن يوطد نفوذه في غربي إيران وبخاصة في مدن الري وقزوين وقم وساوه وهمذان وغيرها(٥) .

وقد بادر العديد من الحكام المحليين – الذين توهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله أنهم من حلفائه – وعلى رأسهم كل من الأتابك سعد الدين

---

(١) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص١٠٥، النويري : نهاية الأرب جـ٢٧، ص٢١٤، ص٢١٥ .

(٣) عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص١١٦، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص١٢١ .

(٤) الجويني تاريخ جنا نكشاى جـ٢ ص٣١٩.

Schneider: Mediaeval researches from Eastern Asiatic Sources vol. II. p. 51

(٥) ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص١٣٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢١٩ .

ابن دكلا، صاحب أتابكية فارس، والأتابك أوزبك بن البهلون صاحب اذربيجان وآران إلى إعلان الولاء للسلطان الخوارزمي وذلك بذكر اسمه في الخطبة على المنابر(١).

ولم يجد السلطان الخوارزمي حرجاً في أن يعلن إسقاط اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله من الخطبة مستنداً إلى فتوى أصدرها جماعة من علماء بلاد ما وراء النهر، قضت بعدم أهليته للخلافة، وبالتالي فقد اختار هو واحداً من سلالة أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب في مدينة ترمذ ويدعى علاء الدين أبو المكارم محمد بن أبي جعفر بن طاهر الحسيني ونصبّه خليفة، وخطب له على المنابر ونقش اسمه على السكة(٢).

ولم يكن بوسع الخليفة العباسي أن يقف مكتوف اليدين حيال هذا التحدى الخطير من قبل الخوارزميين، بعد أن رأى بنفسه تهاوى حلفائه تباعاً تحت وطأتهم، فبادر إلى مراسلة خاقان المغول جنكيزخان(٣) – الذي ذاع صيته في الشرق – كي يضغط من جهته على الخوارزميين بكل وسيلة ممكنة.

وفي الحقيقة لم يكن لدى جنكيزخان آنذاك أية دوافع تحركه ضد الخوارزميين أو سلطانهم، فقد كان مشغولاً في أقصى الشرق بتوطيد سلطانه على الصين الشمالية التي استولى على عاصمتها بكين سنة ٦١٢هـ(٤) وكذلك مطاردة خصومه في غربي منغوليا من القبائل المغولية المناوئة له من

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكرتي ص٥٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ص٣١٧.

(٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب جـ٤ ق٢ ص١٠٨٥، فامبري: تاريخ بخارى ص١٥٧، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٣٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٤٠، ميرخواند: روضة الصفا جـ٥ ص٧٧ – ص٧٨، الصفدي: الوافي بالوفيات جـ٢ ص٢٧٧.

(٤) جروسيه: جنكيزخان قاهر العالم ص٢٥١، إدوارد بروي: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص٣٥٩.

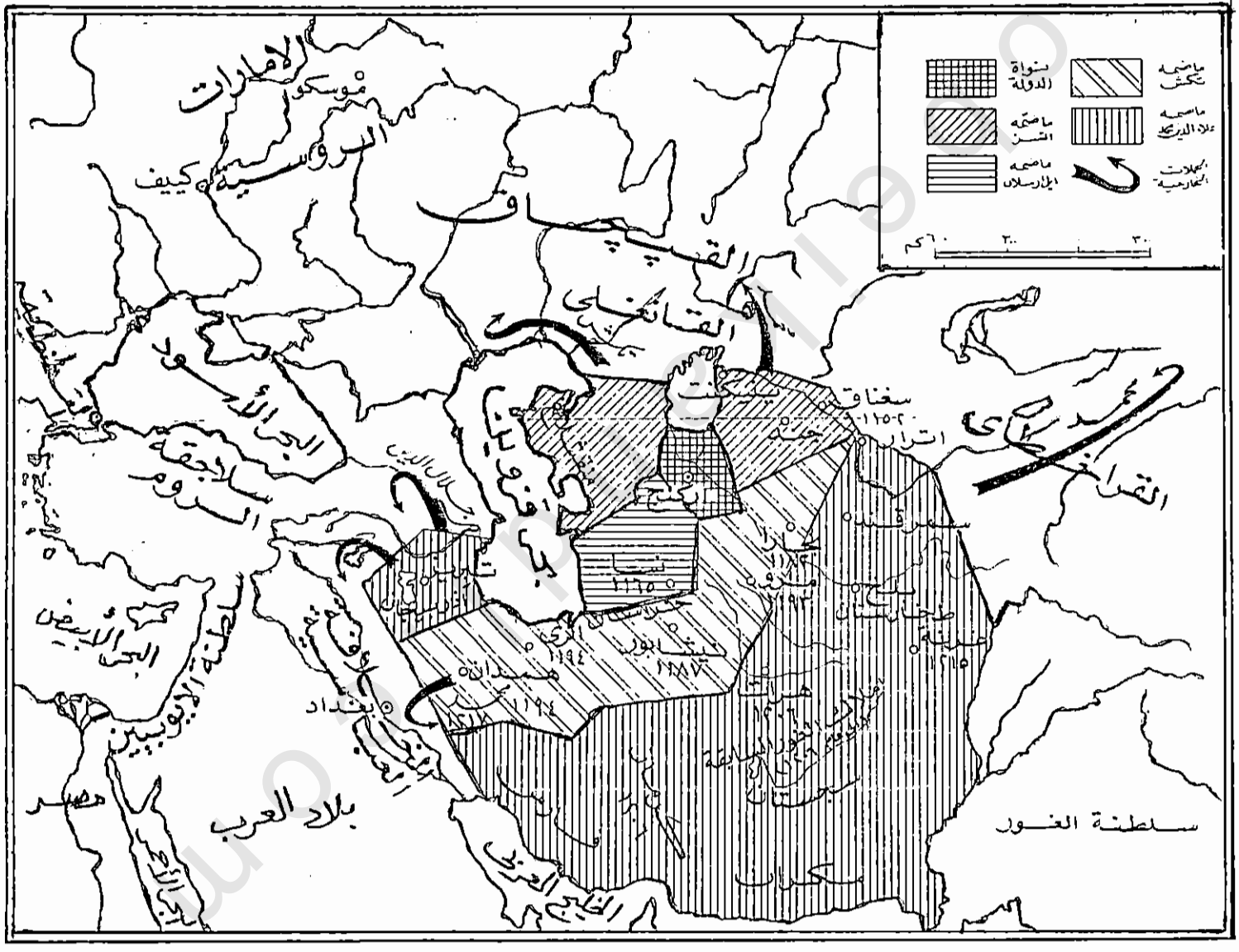
عاصمة الخوارزمشاه
عاصمة علاء الدين محمد
عاصمة السلاجقة
عاصمة الغزنويين
حملات الصليبية
٣٠ ٠ ٣٠ ٦٠ كم
موسكو
الإمارات الروسية
كييف
القبجاق
القفجاق
القبائل
بحر الخزر
بحر الأسود
السلاجقة
بحر الأبيض
المحيط الهندي
مصر
بلاد العرب
الخليج العربي
بغداد
سلطنة الغور
القراخطائي
سغناق
اترار
بخارى
سمرقند
طالقان
بلخ
نيسابور
مرو
همذان
الري
أصبهان
كرمان
فارس
هرمز
كيش
سلجوقية الروم

obeikandl.com

obeikandl.com

المركيت والنيمان[١] فآثر أن يتريث في تحديد علاقته مع السلطان الخوارزمي حتى تتضح الأمور.

أياً كان الأمر، فقد عجز الخوارزميون عن تحقيق هدفهم في الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإسقاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله. إذ هبت على جيوشهم عند أسد آباد التي تقع غربي همذان عواصف ثلجية عنيفة أهلكت أعداداً كبيرة من الجند والدواب والمؤن، وأطمعت فيهم الأكراد من ساكني أقليم الجبال المجاور، فلم يجد السلطان الخوارزمي مناصاً من العودة إلى بلاده[٢].

ولم يستفد الخوارزميون من الظروف التي كانت تشغل المغول ولا من المعاهدة التجارية التي جرى إبرامها بين سلطانهم علاء الدين وجنكيز خان سنة ٦١٥هـ[٣]، كما لم يستفيدوا عسكرياً من التجربة الحربية التي خاضتها القوات الخوارزمية بقيادة السلطان نفسه والتي عجزت فيها عن إلحاق الهزيمة بجيش مغولي صغير كان يقوده حوجي بن جنكيز خان مطارداً قبائل المركيت المغولية المناوئه التي فرت غرباً إلى حدود نهر أرتيش شمالي خوارزم[٤].

أما أكبر الأخطاء التي وقع فيها السلطان الخوارزمي فكان الإغضاء عن النصيحة الصادقة التي أسداها إليه المخلصون بأن يجمّع جيوشه كلها في

---

(١) رشيد الدين: تاريخ جنكيزخان ص١٧٩ (مخطوط) هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص٦٦.

(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٦٤، العريني: المغول ص ١١٣.

Howorth: history of the mongols vol I. p. 8.

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٤١، عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ص٥٠.

(٤) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص٥٣٢، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص٩٦.

مكان واحد تحت قيادته قبل لقاء المغول، وألا يفرقها بين كبريات المدن الإسلامية الواقعة على خط المواجهة المرتقبة معهم، حتى لايسهل على هؤلاء المغول القضاء على تلك المدن الواحدة تلو الأخرى(١) .

ولما كانت جيوش المغول آنذاك على أعلى درجة عسكرية بالقياس لغيرها من الجيوش الأخرى، وبخاصة في حسن التدريب وسرعة الحركة والمناورة وبراعة التخطيط للحرب(٢) فقد كان طبيعياً أن تنجح في اجتياح معظم أراضي الدولة الخوارزمية من شرقيها إلى غربيها في مدة يسيرة لم تتجاوز بضعة سنوات قليلة، ولا غرو أن فرَّ السلطان الخوارزمي علاءالدين بنفسه منذ بداية الحرب سنة ٦١٦هـ حتى انتهى به المطاف إلى جزيرة نائية في بحر قزوين حيث لفظ أنفاسه كمداً على ضياع مملكته الشاسعة وعلى نسائه اللائى وقعن أسيرات – وعلى رأسهن أمه تركان خاتون – في أيدي المغول عند قلعة مازندران سنة ٦١٧هـ(٣) .

ولم يقدر للسلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي (٦١٧–٦٢٨هـ) أن يصمد أمام المغول أيضاً، فعلى الرغم من انتصاره عليهم عند سهل بيروان القريبة من كابول سنة ٦١٨هـ(٤) إلا أنه اضطر إلى الفرار إلى بلاد الهند عبر نهر السند أثر اختلاف قواد جيشه، وتفرق جنده وبالتالي هزيمته

---

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٩٠، ص٩١ .

Schneider, mediaeval researches from Eastern Asitatic Sources: vol II. p. 58

(٢) براون : تاريخ الأدب في إيران ص٥٥٣، ف . يان . الصيني: جنكيزخان سفاح الشعوب ص٩٧، ص١٦٤، جروسيه : جنكيز خان قاهر العالم ص٢٩٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٣٧٣ ، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٣٦٤ .

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص١٥٤، النويري: نهاية الأرب ج٢٧ ص٢٥٦، جروسيه: جنكيز خان قاهر العالم ص٣١٤ .

أمام جيش جنكيز خان في نفس العام(١) .

قبل أن يخرج السلطان جلال الدين من الهند سنة ٦٢١هـ، قرر أن تكون وجهته إلى أقصى الغرب، وبمعنى آخر فإنه قد آثر أن يضع نفسه وما تبقى من جيشه في أبعد نقطه عن متناول جيوش المغول، ومن ثمة فقد اجتاز الصحراء القاحلة التي تفصل بين الهند وإقليم كرمان الذي سارع حاكمه براق الحاجب بإعلان ولائه للسلطان الخوارزمي، بل إنه عرض إحدى بناته عليه ليتزوجها، فقبل السلطان ذلك منه، وتكرر الإجراء نفسه مع سعد الدين أتابك إقليم فارس، وعلاء الدين حاكم إقليم يزد(٢) .

وكانت الخطوة التالية لدى جلال الدين هي الاستيلاء على مدينة أصفهان عاصمة اقليم الجبال الذي يتحكم في المنطقة الغربية من إيران ومن ثمة انتقل إليها فدانت له، ولما كان أخوه غياث الدين – الذي كان يحكم تلك المنطقة من قبل أبيهما السلطان علاء الدين وتوطد حكمه فيها بعد انسحاب المغول منها عائدين في اتجاه الشرق – قد أعلن بدوره انضواءه تحت راية أخيه، فقد أصبح غربي إيران بأكمله واقعاً تحت سلطان جلال الدين(٣) الذي أضحت مملكته الجديدة متاخمة لأملاك الخلافة العباسية.

وقد ساعدت الظروف السياسية جلال الدين كثيراً، إذ توفي خصم الخوارزميين العنيد الخليفة الناصر لدين الله في شوال سنة ٦٢٢هـ، ولم يمكث ابنه الظاهر في الخلافة سوى تسعة أشهر إذ توفى في رجب سنة ٦٢٣هـ(٤) ،

---

(١) الجويني : تاريخ جهانكشاي جـ٢ ص٤٦-٤٧، العريني: المغول ص١٣٦.

(٢) النويري : نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٦٥، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ ص٢٦١، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص١٧١ – ١٧٢.

(٣) الجويني : تاريخ جهانكشاي جـ٢ ص٥٥، عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٢٠.

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص١٤، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص١٣٦.

فآلت الخلافة إلى ابنه المستنصر (٦٢٣-٦٤٠هـ) الذي لم يكن يرى الدخول في مواجهات عسكرية ضد الخوارزميين ومن ثمة فقد استقبل في قصر الخلافة في بغداد رسول جلال الدين[١].

ومن ناحية أخرى انشغل المغول بوفاة الخاقان الأعظم جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ[٢] وانهمكوا في الإعداد للقوريلتاي (المؤتمر العام الذي يناط به اختيار الخان الجديد) مدة عامين أدار خلالهما تولوي بن جنكيز خان دفة الأمور حتى تم انتخاب أوكتاي ثالث أبناء جنكيزخان خاقاناً أعظم مكان أبيه سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م[٣].

وفي تلك الأثناء كان السلطان جلال الدين قد انطلق شمالاً إلى أذربيجان التي دانت له، فواصل الزحف شمالاً حيث هزم الكرج المسيحيين واستولى على عاصمتهم تفليس[٤] وانتقم منهم لما ارتكبوه من فظائع في حق المسلمين وبخاصة في إقليم أذربيجان المجاور.

وجاء استيلاء الخوارزميين في الثامن والعشرين من جمادي الأولى سنة ٦٢٧هـ على مدينة اخلاط[٥] التابعة - آنذاك - للملك الأشرف بن العادل

---

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٠٧، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٨٣.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص٢٨، جروسيه: جنكيز خان قاهر العالم ص٣٧٢.

(٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص٦٤٩، هارولدلامب: جنكيزخان امبراطور الناس كلهم ص١٦٢.

Howorth: History of the mongols. Vol I. P. 130

(٤) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٢١١ - ٢١١، العيني: المغول ص١٧٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٨٨، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص١٧٩.

الأيوبي بداية لنهاية سلطانهم الأخير جلال الدين منكبرتي الذي تعرض جيشه لهزيمة مريرة أمام تحالف جيش الأيوبيين وسلاجقة الروم في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٦٢٧هـ على مقربة من أذربيجان، فانهزم السلطان إلى أذربيجان، وأرسل جنوده إلى صحراء موغان لينالوا قسطاً من الراحة(١).

ولم يضيع الإسماعيلية في آلموت الفرصة السانحة – بعد أن ذاقوا الأمرين على يد السلطان جلال الدين من قبل حتى إنه اضطرهم إلى دفع أتاوة سنوية له – فراسلوا المغول حتى ينهضوا للقضاءعليه(٢)، قبل أن يسترد قوته.

وفي الحقيقة لم يكن المغول في حاجة إلى تحريض من الإسماعيلية أو غيرهم، فقد جاء انتخاب أوكتاي بن جنكيزخان سنة ٦٢٦هـ خاناً أعظم للمغول إيذاناً بتنفيذ استراتيجية مغولية جديدة تمثلت في غزوات عسكرية متوالية على جبهات ثلاث هي جنوبي الصين، وغربي إيران وشرقي أوربا.

وما يهمنا في هذا المجال هو الحملة الثانية التي كانت ترمى إلى إعادة تثبيت سلطان المغول على مختلف غربي إيران وبخاصة الشمال الغربي(٣) حيث يكمن عدوهم اللدود السلطان الخوارزمي جلال الدين.

وسرعان ما بادر هذا الأخير – رغم الخلاف – إلى مكاتبة الخليفة العباسي المستنصر بالله، والملك الأشرف الأيوبي صاحب دمشق والجزيرة،

---

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص١٧، ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ٢١٢ – ٢١٣، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٤٠.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص٤٤، ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٥٢٤.

(٣) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٣١، العريني: المغول ص١٧٥.

Schneider: Mediseval researches from Eastern Asiatic Sources Vol. I. P. 112.

والسلطان علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، وغيرهم من أمراءالمسلمين حكام ميافارقين وماردين وآمد يستنجد بهم كي يرسلوا إليه جيوشاً من عندهم تعاونه على مجابهة هذا الخطر الذي يتهدد المسلمين جميعاً، فاحجم هؤلاءكلهم عن مناصرته(١) .

سقوط جلال الدين :

أسفرت الهزيمة السابقة عن نتائج خطيرة أثرت على ما تلاها من أحداث، فقد أصيب الجيش الخوارزمي بنكسة فادحة، تمثلت في الآف القتلى والأسرى، وفي اضطراب نظامه وفقدان السيطرة عليه، وسقوط هيبته بين القوى العسكرية المجاورة له بعد أن كانت تخشى بأسه وسطوته.

وقد أدى هذا الاختلال في التوازن العسكري إلى ظهور مؤشرات سياسية لدي القوى السياسية في المنطقة، فقد أيقن معظم أمراءالجزيرة أن الموقف الجديد يحتم عليهم سرعة الانضواء تحت الهيمنة الأيوبية التي يمثلها الملك الأشرف المقيم بدمشق والمؤيد من قبل أخيه السلطان الكامل في مصر، ومن جانب آخر أصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام سلاجقة الروم كي تمتد أطماعهم إلى كثير من المدن التي كانت خاضعة لسلطان الخوارزميين شرقي مدينة أخلاط(٢) كذلك لم تتأخر مملكة الكرج المسيحية عن إزالة السيطرة الخوارزمية عن أراضيها وبخاصة العاصمة تفليس(٣) .

ولم تلبث بعض المدن المهمة مثل تبريز وكنجة أن أظهرت عصيانها

---

(١) الجويني : تاريخ جهانكشاي جـ٢ ص٨٦، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٩٤ – ص٢٩٥ .

(٢) ابن البيبي : مختصر تاريخ سلاجقة الروم ص٢٢٣ .

(٣) العيني : المغول ص١٨٠ .

للخوارزميين، واجترأت على قتل البعض منهم[١] وشرعت طائفة الإسماعيلية في آلموت في المماطلة في أداء الأتاوة المقررة عليها من قبل السلطان الخوارزمي[٢].

أما الخطر الأكبر وهو المغول فقد أصبح هجومه وشيكاً جداً بعد أن وصلت طلائع جيشهم إلى مدينة الري، وانفتح الطريق أمامهم نحو إقليم أذربيجان حيث تناثرت بقايا الجيش الخوارزمي المهزوم.

كل هذه المؤشرات كانت تنبئ بزوال الدولة الخوارزمية وأفول نجم سلطانها الأخير جلال الدين منكبرتي الذي كان قد وقع – عقب هزيمته السابقة – في أخطار عديدة منها – :

أ – ضعف نظام استطلاعه، فقد وقعت إحدى سراياه في أيدى المغول عند مدينة الري، بينما أعطت سرية أخرى معلومات خاطئة عن عودة المغول، وتخاذلت الثالثة، فلم يذهب أفرادها إلى ما زندران أو خراسان كما أمر بذلك السلطان الخوارزمي نفسه[٣].

ب– اعتقاده الخاطىء أن المغول سيقضون الشتاء بالعراق العجمي، وأنهم لن يتعدوه إلى أذربيجان إلا في الربيع، فكانت مباغتهم له على غير استعداد منه، فاضطر إلى ترك نسائه في العراء على مقربة من مدينة تبريز، وسارع هو

---

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٥٩، ص٣٦٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٦، ويذكر النسوي الذي توجه إلى الإسماعيلية ليفاوضهم في أمر سداد الأتاوة أن الأمر قد تقرر على أنهم يزنون منها عشرين ألف دينار، ويمهلهم النسوي في العشرة الباقية ريثما يشاورون فيها السلطان .. انظر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٤٢.

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٥٢، الجويني: تاريخ جهانكشاى جـ٢ ص٨٨، رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص٤٦.

إلى موقان ليجمع عساكره المتفرقة هناك[١].

جـ- إلحاحه في مكاتبه الملك الأشرف الأيوبي صاحب الجزيرة وأخلاط - رغم نصح خلصائه له بعدم جدوى ذلك - خاصة وأنه أي جلال الدين قد دخل بزوجة الملك الأشرف الكرجية - نسبة إلى بلاد الكرج - في ليلة اقتحامه مدينة أخلاط - وأصرَّ على الاحتفاظ بها حتى بعد انهزامه من جيش الملك الأشرف وحلفائه سلاجقة الروم سنة ٦٢٧هـ[٢] كما سبق القول.

د - تجريده ستة آلاف فارس خوارزمي - رغم حرج موقفه بعد الهزيمة السابقة واقتراب خطر المغول منه - للهجوم على مدن خرتبرت وملطية وأرزنجان انتقاماً من خصمه علاءالدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، فأغار هؤلاء الفرسان الخوارزميون على تلك المدن الرومية، وساقوا إلى المعسكر الخوارزمي الكثير من الغنائم حتى بيعت عشرون غنماً بدينار[٣] وكشف هذا الإجراء من قبل السلطان الخوارزمي عن فقده بصيرته السياسية إذ إنه بذلك قد بدد أية بارقة أمل في احتمال حدوث تغيير في موقف سلاجقة الروم معه في صراعه المحتوم ضد المغول المتجهين نحوه.

هـ- انخداع السلطان الخوارزمي برسالة الملك الأرتقى المسعود بن أرتق صاحب آمد الذي أخذ يحرضه على غزو بلاد سلاجقة الروم واعداً إياه بالمساعدة العملية في هذا الغزو بإمداده بخمسة آلاف فارس من قبله، وبالفعل عزف السلطان الخوارزمي عن الاتجاه إلى مدينة أصفهان عاصمة إقليم

---

(١) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٤٠٤، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية المغول ص١٩٤.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٦٣، ابن العميد : تاريخ الأيوبيين ص ١٥.

D'Ohsson: Histoire des Mongols. Vol 3. P. 42

(٣) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٧٣.

الجبال، وغيّر مساره نحو آمد، فلما طارده المغول التجأ إليها طالباً الاحتماء بأسوارها، رفض الملك المسعود فتح أبوابها له، وقذفه أهلها بالحجارة، فارتد عنها حسيراً[١] ومضطراً إلى مواجهة المغول وحده.

و – وضع ثقته المطلقة في «أوترخان» الذي كان يصله بقرابة من ناحية الخؤولة، إلا أنه كان يخادعه خوراً وجبناً، فأوهمه مرة أن المغول قد رجعوا من عند حدود منازجرد، وأشار عليه – في أثناء الفرار إلى آمد التي رفضت استقباله – بالعودة من نفس الطريق الذي سلكه المغول إليه، فرجع برأيه ليكون هلاكه من جميع الوجوه بتدبيره – كما يقول النسوي – ثم تركه في نهاية المطاف ليلقى مصيره وحده وتوجه هو إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين لما كان بينهما من مكاتبات[٢].

ز – وقوعه في العديد من الأخطاء الشخصية وأهمها :

١ – انكبابه على تعاطي الخمر مع ندمائه وخاصته في ساعات الحرج التي أحدق فيها المغول به، حتى أوشك بعضهم أن يدخل عليه خيمته، وهو نائم سكران لايملك من أمر نفسه شيئاً، مخالفاً بذلك تعاليم الدين الإسلامي من ناحية، وشرف الجندية الذي يلزم القائد وجنده – في ميدان الحرب – بإعمال العقل والتركيز بدلاً من الوقوع تحت طائلة التخاذل والتشويش من ناحية أخرى[٣].

٢ – حادثة خادمه قلج، وهو فتى خصي جميل الصورة، كان جلال

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٩٥، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٠٢.

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٧٥، ص٣٨٠.

(٣) الجويني : تاريخ جهانكشاى جـ٢ ص٨٩، رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص٤٦. براون : تاريخ الأدب في إيران ص٥٧٢.

الدين يرعاه، فاتفق أن هذا الخادم مات، فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجّالة، ومشى بعض الطريق راجلاً، فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد، فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا، ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصي، واستصحبه معه حيث سار، وهو يلطمُ ويبكي، ثم امتنع عن الأكل والشرب، وكان إذا قُدِم له طعام يقول: «احملوا منه إلى قُلج» ولا يتجاسر أحد أن يقول إنه مات، فإن قيل له مرة إنه مات، قتل القائل، فكانوا يحملون إليه الطعام ويعودون فيقولون: «إنه يقبل الأرض، ويقول: إنني الآن أصلح مما كنت» فلحق أمراؤه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه إلى وزيره، فبقي حيران لايدري ما يصنع ولا سيما لما خرج المغول إليه(١).

أما الوزير، فقد تسحب صوب حيزان، فأعاد تعميرها، وجاهر بالعصيان فيها، وبادر إلى مكاتبة الملوك وإصلاح حاله معهم على أن يملك آران وآذربيجان لنفسه، ثم يقيم لهم الخطبة بهما، فكاتب علاء الدين كيقباذ، والملك الأشرف باذلاً الطاعة لهما، وناعتا سلطانه (جلال الدين) بالظالم المخذول في كتبه»(٢).

وقد تمادى الوزير في عصيانه حتى إنه قبض على كل من عبر بحدود

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٦، ص٤٩٧، أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٤٧، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٩٣ – ص٢٩٤.

(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٥٧، وحيزان من مدن أرمينية الكبرى قريبة من شروان. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص٣٣١.

قلعته من أصحاب السلطان في أثناء الجفلة من المغول، ووضعهم تحت العذاب، ثم استلب أموالهم(١) بل إنه كاتب حسام الدين قلج أرسلان أكبر أمراء التركمان في آران يأمره بالاحتراز على ما عنده من حرم السلطان وخزائنه، وإنه إن حضر السلطان بنفسه لم يسلمها إليه(٢) فاضطر جلال الدين إلى مراسلة الوزير واستمالته ومخادعته إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه أبقاه أياماً ثم قتله(٣).

٣- إصداره الأمر - لما دهمه المغول آخر مرة - إلى قائد جيشه أورخان أن يفارقه بمن معه من العسكر حتى يتبعه المغول، ويخلص هو بمفرده، ولقد أخطأ في ذلك - كما يقول النسوي - فإن أورخان لما فارقه انضوى إليه من شداد العسكر خلق، ووصل إلى أربل ومعه أربعة الآف فارس، وساق إلى أصفهان، وملكها زماناً إلى أن قصدها المغول، وظلَّ على قيد الحياة بفارس إلى سنة ٦٣٩هـ وهي نفس السنة التي كتب فيها النسوي كتابه المشهور سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي(٤).

أيا كان الأمر، فإن هزيمة السلطان جلال الدين أمام المغول عند آمد، وفراره إلى إحدى القرى القريبة من ميافادقين، ثم صعوده إلى جبل مجاور يسكنه الأكراد، قد انتهى به إلى الوقوع في قبضة بعض هؤلاء الأكراد، فقتله أحدهم في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ/ أغسطس سنة ١٢٣١م(٥).

---

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٥٧.

(٢) الجويني: تاريخ جهانكشاي جـ٢ ص٨٧، رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص٤٥، العيني: المغول ص١٧٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٧، خواندمير: دستور الوزراء ص٣١٢.

(٤) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٧٩، أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٥٠، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص٢٩٦.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص٣٢٢، العيني: المغول ص١٧٧، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق١ ص٢٤١.

ونما خبر مصرعه إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين فأمر بإحضار من قتله، فأحضروه فأقرَّ بقتله، وأحضر فرسه وسرجه وسيفه، وكان «أوترخان» السابق ذكره وجماعة من خواص السلطان الخوارزمي قد وصلوا إلى شهاب الدين غازي، فأنزلوا في قصره، فأمر شهاب الدين بحمل جثمان السلطان جلال الدين ليلاً من القرية، فلما جاءوا قال لأوترخان انظر هل هو هذا؟ فلما رآه بكى، وقال: نعم، فدفنوه ليلاً، وأخفوا قبره مخافة أن ينبش(١).

ثم أمر المظفر غازي بشنق القاتل وأخوته وقتل أهله وأقاربه وقال: مثل هذا السلطان الكبير الشأن يجسرون عليه، والله لو أحضروه إليّ حياً لأغنيتهم(٢).

وفي الحقيقة لايخرج هذا الموقف الدرامي من قبل صاحب ميافارقين عن مجرد كونه إجراءً شكلياً ذا طابع انفعالي مؤقت؛ ذلك أنه لم يشأ ولم يكن بمقدوره الخروج عن السياسة العامة التي انتهجها الأيوبيون جميعاً حيال المغول والتي كانت تقضي بعدم الدخول معهم في آية مواجهات عسكرية أياً كانت الأحوال، ويفسر ذلك أهم أسباب إحجام هؤلاء الأيوبيين عن تقديم أية مساندة عسكرية للسلطان جلال الدين في صراعه المرير ضد المغول.

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٦٩ – ص٦٧٠، النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٨٣ – ٣٨٤، أما الجويني: تاريخ جهانكشاي ج٢١ ص٩٣، وعنه ينقل رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص٤٦، فيضع صاحب آمد الملك المسعود مكان صاحب ميافارقين الملك المظفر غازي ويضيف بأن الملك المسعود بنى مدفناً يليق بالسلطان الخوارزمي في «آمد» وليس هذا صحيحاً، لما أثبته في المتن من العلاقة السيئة بين السلطان الخوارزمي وصاحب آمد وأهلها ولأن جبال الأكراد تقع على مقربة من ميافارقين لا آمد.

(٢) ابن العديم: تاريخ الأيوبيين ص١٨، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٠٣.

التمزق الخوارزمي :

لما كان المغول قد أوقعوا بالسلطان جلال الدين وهو بظاهر آمد، ومضى منهزماً إلى جبل الأكراد القريب من ميافارقين وكان من أمره ما سبق الإشارة إليه، فقد تفرق من كان معه من العسكر، وتمزقوا في كل وجه(١) .

فقد تسحب خاله ومعه جماعة إلى الملك الظاهر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، على حين اتجهت زوجة السلطان وسراريه وخدامه وقطعة كبيرة من عسكره إلى مدينة حرّان وطلبوا أماناً من الأمير صواب نائب الجزيرة من قبل الملك الأيوبي الكامل، فأمنهم ثم غدر بهم، فنهبهم عسكره، وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعه حرّان ، ثم استدعيت إلى دمشق فأقامت بها(٢) .

أما حظية السلطان التي كان قد تركها مع أحد أصحابه قبيل هجوم المغول، فإنه لما سمع بفقد السلطان ، وصح ذلك عنه، أخذها ومضى بها إلى بغداد، وأهداها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، فكانت عنده من أجل حظاياه إلى أن ماتت في أيامه(٣) .

وتوزعت طوائف أخرى من الخوارزميين ما بين نصيبين، والموصل، وسنجار، وإربل وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي وغيرهم(٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٨ ، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٧٠ .

(٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ١٥٧ ، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٠٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢٣ .

(٤) ابن الأثير : لكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٨ ، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٦٧ .

وقصد الجزء الأكبر من الخوارزميين بلاد سلاجقة الروم، فأقطعهم السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بلاداً لمعيشتهم واستخدمهم(١) على حين أنهزم كثيرون منهم إلى طرابزون – الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود – وبلاد الكرج المجاورة(٢) .

وهكذا تبعثرت بقايا الخوارزميين في عدة أنحاء من الشرق الأدنى الإسلامي، فكان من المتوقع ذوبانهم في إحدى هذه الأنحاء أو كلها، غير أن الظروف السياسية التي أحاقت بالشرق الأدنى الإسلامي آنذاك هيأت لهم الفرصة في الاستمرار كقوة عسكرية مؤثرة تدخلت في أدق الصراعات السياسية والعسكرية حتى توافق لها استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ، فظلَّ في أيدي المسلمين حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

وسأحاول خلال الصفحات التالية أن أستعرض علاقة الخوارزميين بأهم القوى السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ومدى أثر هذه العلاقات على الأوضاع المختلفة في المنطقة .

أولاً : سلاجقة الروم :

ارتقى علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو العرش مكان أخيه السلطان عز الدين الذي توفى في الرابع من شوال سنة ٦١٧هـ، فأرسل إليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت/٦٢٢هـ) منشور السلطنة ونيابة حكومة ممالك الروم، والخلعة السلطانية على يد الشيخ شهاب الدين أبي عبد الله بن

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٣٢٥، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٢٥ .

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٧٦، وانظر أيضاً : كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص١٦٨ .